

على بابها ، وبني مدرسة مجاورة للشهد الحسيني ، وأخرى
بالاسكندرية ومدارس بالقدس ودمشق .

ويظهر أن أعظم ما شيده هو المدرسة الصلاحية التي أقامها
بجوار قبر الإمام الشافعي ؛ وامل صلاح الدين ، وكان شافعيًا ،
أراد بإنشائه هذه المدرسة أن يحيي بها ذكرى الشافعي من ناحية ،
وأن يكون انبعاث مذهبه قريبًا منه حيث يرقد ؛ فوكل أمر
إنشائها إلى نجم الدين الجبوشاني ، فنهض ببناء مدرسة لم يمصر
بهذه البلاد مثلها ؛ لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ؛ وكان يخيل
لن يطوف بها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام وغيره من
صراقتها ، فكانت أشبه بمدينة جامعية ؛ ولم يرض عنها صلاح
الدين بمال ، بل كان يقول لنجم الدين : زد احتفالاً وتأنقًا ،
وعلىنا القيام بمثونة ذلك كله . ووقف عليها حكامًا بجوارها ،
وفرنا تجاهها ، وحوانيت بظاهرها ، والجزيرة التي كانت تسمى
جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة . واصلها بعد أن تم بناؤها
سنة ٥٧٢ أصبحت أعظم مدرسة في العالم الإسلامي كله ، فكانت
لذلك تدعى : تاج المدارس .

وجعل صلاح الدين أمر التدريس ، والنظر فيها لنجم الدين
الذي تولى أمر بنائها ، ورتب له في الشهر أربعين دينارًا عن
التدريس ، وعشرة دنانير عن النظر في أوقاف المدرسة ، وجعل
له من الخبز في كل يوم سنتين رطلا ، وراويتين من ماء النيل .
ولما مات ولها شيخ الشيوخ محمد بن حمويه الجويني في حياة صلاح
الدين . فلما مات الساطان ولي النظر في وقفها بنو السلطان واحداً
بعد واحد ، ثم خلصت بعد ذلك ، وعاد إليها الفقهاء والدرسون .
ويدلنا على ما لهذه المدرسة من القدر أن جماعة من أعيان
العلماء قد تولوا التدريس فيها ، نذكر من بينهم شيخها الأول
نجم الدين الجبوشاني ، وهو فقيه شافعي ولد بناحية نيسابور
سنة ٥١٠ ، وتفقه على محمد بن يحيى تليذ الغزالي ، وكانت له
معرفة بنجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين ، وعند ما قدم إلى
مصر تعصب نفسه لدم الفاطميين وتلبهم ، وجعل تسييحه سبهم ؛
ويقال إن الفاطميين حارلوا استمالته فلم يقبل . ولما عزم صلاح الدين
على قبض العاضد وأشياعه واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك ،
وكان أكثرهم في الفتيا نجم الدين الجبوشاني ، كما كان أول من

من معاهد العلم في عصر الحروب الصليبية :

المدرسة الصلاحية

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

كان التعليم في مصر قبل مقدم صلاح الدين إليها ، في الجوامع
والمساجد ، وأول ما عرفت مصر إقامة درس من قبل الخليفة
بمرتب ثابت كان في عهد خلافة العزيز بالله الفاطمي ، فقد سأل
وزيره يعقوب بن كلس صلة رزق جماعة من الفقهاء ، يقومون
بالتدريس في الجامع الأزهر ، فأطلق الخليفة لهم ما يكفي كل
واحد منهم من الرزق ، وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، وبنيت
بجانب الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع ، وتحلقوا
فيه بمد الصلاة إلى أن تعلى العصر ، وكانت عدتهم خمسة وثلاثين
رجلاً ، وكان لهم أيضاً من مال الوزير صلة في كل سنة ، كما كانوا
موضع عطف الخليفة وحبه .

ثم أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة وجعلها أشبه بجامعة
تلقى فيها الثقافة المالوية من فقه ونحو وحديث وأدب واهنة وهيئة
وطب ورياضة ومنطق وفلسفة ، وأجرى على أسانئها الأرزاق
الواسعة وجهازت بمكتبة ضخمة .

وكان الهدف من التعليم في الجامع الأزهر ودار الحكمة بث
مبادئ الشيعة ونشر مذهبهم . ولم تدع المدارس في مصر في
عهد الفاطميين ، بل لم ينشأ فيها سوى هذه المدرسة التي أنشأها
ابن السلا وزين الظاهر العبدي وكان من غلاة السفين ، فبنى
بالاسكندرية سنة ٥٤٦ مدرسة للشافعية أسند أمرها إلى العالم
الشهير أبي طاهر السلفي . وقبل هذه المدرسة أنشأ أحد وزراء
الحافظ مدرسة لتعليم الشريعة بالاسكندرية أيضاً .

فلما جاء صلاح الدين عمل على تأسيس المدارس المختلفة ،
ليشيع في البلاد مذهب أهل السنة ويميدها إلى طريق الجماعة ؛
فأنشأ بجوار الجامع العتيق مدرستين : إحداهما للشافعية والأخرى
للمالكية ، وحول قصر الوزير المأمون البطائحي مدرسة للحنفية
أخذت اسم المدرسة السيوفية ؛ لأن سوق السيوفيين كان حينئذ

خطاب لبني العباس .

وانجم الدين كتاب تحقيق المحيط في شرح الوسيط الذي ألفه النزالي في فقه الشافعية ، وكتب الشرح في ستة عشر مجلداً وقد اختلف المؤرخون فيه ؛ فالسبكي يراه إماماً جليلاً ورعاً آسراً بالمعروف . وشاهده ابن جبير وأثنى عليه . وابن خلكان يقول : رأيت جماعة من أصحابه وكانوا يصفون فضله ودينه ، وأنه كان سليم الباطن قليل المعرفة بأحوال الدنيا . وابن أبي أصيبعة يراه ثقيل الروح متشغفاً في الميث يابساً في الدين يأكل الدنيا بالناموس .

والذي يظهر من أعماله أنه كان شديد الغلظة فيما يتمدد ، وكان بينه وبين الحنابلة فتنة قائمة يكفرونه ويكفرهم ؛ ومن مقالته أنه نبش قبر ابن الكيزاني ، وأخرج عظامه من رمسه الذي كان بجانب قبر الشافعي قائلاً لا يتفق مجاورة زنديق لصديق . واسكن كرهه للفاطميين وشدة إخلاصه للأيوبيين هي التي جعلت صلاح الدين يثق به ويكرمه ويقربه ؛ برغم أنه لما مات وجدت له ألوف الدنانير ، فلما سمع ذلك صلاح الدين قال : يا خيبة المسمى ! وتوفي نجم الدين سنة ٥٨٧ .

وفي عهد صلاح الدين أيضاً درس فيها محمد بن هبة الله البرمكي الحموي ، وهو فقيه فرضي محوى متكلم أشعري العقيدة مرجح أهل مصر في فتاويهم ، وله نظم تعليمي كثير : ألف أرجوزة في المقائد لصلاح الدين وأخرى في الفرائض أهداها إلى القاضي الفاضل .

ودرس بها كذلك سيف الدين الأمدى أذكي أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعية والمبادئ المنطقية .

وأفضل الدين الخونجي ممن قام بالتدريس فيها ، وهو فقيه شافعي يقول عنه ابن أبي أصيبعة : « سيد العلماء والحكام أوجد أهل زمانه وعلامة أوانه ، قد تميز في المعلوم الحكمية : وأتقن المعلوم الشرعية » ؛ وجعله الصالح أبوب قاضي قضاة مصر ؛ ولميزه في المقولات كانت أكثر آثاره فيها ؛ فله مقالة في الحدود والرسوم ، وكتاب الجمل في علم المنطق ، وكتاب كشف الأسرار في علم المنطق أيضاً ، وكتاب الموجز فيه كذلك . وكان الخونجي

عالماً بالطب أيضاً وله فيه : شرح ما قاله ابن سينا في النبض ، وكتاب أدوار الحيات . ولما مات سنة ٦٤٦ رثاه عز الدين الإربلي بقوله :

قضى أفضل الدنيا فلم يبق فاضل ومات بموت الخونجي الفضائل
فيا لها الحبر الذي جاء آخراً فحل لنا ما لم نحل الأوائل
ومستنبط العلم الحق بفكرة بها انضحت للسائلين المسائل
فليت الثنايا عنه طاشت مهامها وكانت أصيبت عن سواء المقائل
فإن غيبوه في الثرى عن عيوننا فما علمه خاف ولا الذكركر خامل
ومهم قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الذي ولي

المناصب الجليلة ، واجتمع له منها ما لم يجتمع لقبه ، فأسند إليه نظر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة وتدریس قبة الشافعي ، والصلاحية والصالحية ، والخطابة . وكانت له منزلة كبرى عند الظاهر بيبرس ومات في رجب سنة ٦٦٥ .

ودرس بالصلاحية ، وتولى قضاء القضاة أيضاً ابنه عمر ، فسار على طريقة أبيه ، بل أربى عليها شدة هيبته . وسلك في ولايته طريق الخير والصلاح ، وتجرى الحق والعدل ، وتصلب في الأحكام . قال السبكي : « ولا يوجد أهل بيت بالديار المصرية أنجب من هذا البيت ، كانوا أهل علم ورياسة وسؤدد وجمالة » ؛ ثم عزل نفسه واقتصرت على تدريس الصلاحية وتوفي سنة ٦٨٠ .

ولما مات ولي أخوه عبد الرحمن المدرسة الصالحية والتربة الصالحية عوضاً عن أخيه مصفاً لما بيده من نظر الخزائن . وفي أيام قلاوون عرضت على عبد الرحمن الوزارة فأبى ثم قبلها بعد إلحاح ، فلما ثقلت عليه تركها . وكان للكاهنين للملك الأشرف خليل ، وبينه وبين وزيره ابن السلجوس تنافس وعداء ، فعمل الوزير وسمى حتى عزله عن كل ما بيده من المناصب ، وكانت سببة عشر منسباً ، وبالغ في إهانتها ؛ ثم سمى له بعض الأسماء فمين بالمدرسة الصلاحية ، ولكن ذلك لم يرض ابن السلجوس فمقدله في ذي القعدة سنة ٦٩٩ مجلساً وندب له العلم ابن بنت العراق الذي نسب إليه كثيراً من العظام فاعتقل وتوعد بالقتل ، وظل في بلاء إلى أول شهر رمضان سنة ٦٩٢ ، حيث أفرج عنه ، ومضى مع الركب إلى الحج ، وزار النبي صلوات الله عليه ، وأنشده قصيدة يمدحه بها ومات عبد الرحمن سنة ٩٥٠ .